الشعر الرعوي بين الشاعرين: الأمريكي روبرت فروست والفلسطيني عز الدين المناصرة

د. عماد عبدالوهاب الضمور*

تاريخ وصول البحث:٢٩ / ١١ / ٢٠١٦م تاريخ قبول البحث: ١٤/ ٢/ ٢٠١٧م

ملخص

يشكّل الشعر الرعوي بلاغة راسخة في الوجدان الإنساني، ورؤيا ثاقبة، وإيقاعاً شعريّاً عذباً، ينبع من حالة شعورية عاطفية خاصة، تنبثق من تجربة الشاعر وموقفه من الواقع، ممّا جعل هذا النوع من الشعر يتفاعل مع التجارب الشعريّة العالمية وأبعادها الإنسانية.

تحاول هذه الدراسة الوقوف على جماليات الشعر الرعوي بين الشاعرين الأمريكي: روبرت فروست، والفلسطيني عزالدين المناصرة، فكلاهما يتحلّى بروح إنسانية عميقة تجلّت في ميلهما إلى الطبيعة، وما رافق ذلك من رؤيا ذات انبعاث فكري واضح، ممّا يكشف عن جذر رعوي راسخ في شعرهما، يُعلي من الطبيعة وتفصيلاتها، وينزع إلى رعويّة المكان وإضفاء ملامح الحياة عليه.

مهما يكن من أمر فإن الدراسة المقارنة لقصائد الشاعرين تكشف عن تأثر واضح للشاعر الفلسطيني المعاصر عزالدين المناصرة بالقصائد الرعوية للشاعر الأمريكي روبرت فروست (١٨٧٤ـ١٩٦٣م)، ممّا يؤكد عالمية هذا الضرب من الشعر، وجذوره الفنية والإنسانية العميقة.

الكلمات المفتاحية: عزالدين المناصرة، روبرت فروست، الأدب المقارن، الشعر الرعوي.

Abstract

Idyll poetry forms a kind of eloquence, which is deeply stabilized in the human emotions, a sharp vision, and a rich poetic rhythm which spreads out of a special emotional state, which results from poet's experience and his attitudes towards reality. Therefore, this kind of poetry interacts with global poetic experiences and their human dimensions.

* أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية، كلية عمان الجامعية للعلوم المالية والإدارية، جامعة البلقاء التطبيقية.

This study examines the aesthetics of the idyll poetry between two poets: The American Robert Frost and the Palestinian Ezzeddine Al-Manasrah. Both poets express a deep human spirit characterized in their tendency to nature, accompanied with a vision of clear intellectual manifestation. This reflects a genuine idyll root in their poetry that exalts nature and tends to describe the idyll nature of the place and adds aspects of life to it. This comparative study depicts the clear influence of the Palestinian poet Ezzeddine Al-Manasrah by the idyll poems of the American poet Robert Frost (1874-1963). It thus confirms the universality of this kind of poetry and its deep artistic and human roots.

Keywords: Ezzeddine Al-Manasrah, Rober Frost, Comparative Poetry, Idyll Poems

المقدمة:

ظهر الشعر الرعوي الإنجليزي أواخر القرن السادس عشر الميلادي على يد مجموعة من الشعراء أبرزهم الشاعر "إدموند سبنسر" في قصيدته "تقويم روزنامة الراعي" التي تعبر عن الواقع الذي عاشه الشاعر بأبعاده الاجتماعية والسياسية والدينية.

وإذا كانت السمة الرعوية في الشعر قد وجدت قبولاً عند النقاد المحدثين منذ وقت ليس ببعيد، فإن الرعوية في الأساس شكل شعريّ بسيط لكنه عميق، تعود إلى عصور تاريخية قديمة، إذ إن الرعويات مصدرها يوناني، أبدعها شاعر إسكندري، هو (ثيوكريت) تنماز بصورها "الفلسفية والهجائية والأخلاقية والترميزية، وهو ما يمثل القسم الأعظم من الفن الرعوي الجاد المعقّد ابتداءً من العالم القديم حتى أواخر عهد الانبعاث"(١).

إنّ الشعر الرعوي شعر عريق في القدم، بدأ بأناشيد تعكس جمال الحياة الريفية، ومواسم الحصاد، وأغاني الفلاحين فيها، يُعلي من الحياة الريفية، ويتخذها مثلاً أعلى بعيداً عن مجتمع المدينة بتعقيده الشديد، وفساده.

والرعويّة بوصفها مظهراً إبداعياً في الشعر قادرة على التغلغل في الأشكال

الشعريّة، ذلك أن اهتمامها بالزمن هو الذي يجعلها أولاً وقبل كلّ شيء عالمية في طابعها؛ لأن واحدة من أعمق الغرائز المتجذّرة في البشر الادعاء بانشغالنا الشديد بالعالم المادي، والبحث عن مهرب من الحاضر الذي يغمرنا إلى ماضٍ نقيّ، أو مستقبل مجهول ينقذنا"[٢].

يتسم الشعر الرعوي بالبساطة والعفوية، والميل إلى الطبيعة التي تجعل منه قانوناً لإنتاج الفن، فضلاً عن حنينها إلى العهد الكلاسيكي الذهبي (الأركاديا). ومن الشعراء الفرنسيين الرعويين في العصر الحديث: (ألبير سامان ١٨٥٨م/ ١٩٠٠م) و(فرنسيس جام ١٨٦٨/ ١٩٣٨م) و(هنري رينيه ١٨٦٤م/ ١٩٣٦م) والأمريكي (روبرت فروست ١٨٧٤/ ١٩٦٣م). وسيحظى الشاعر الأخير باهتمام خاص في دراستنا هذه.

روبرت فروست شاعر أمريكي معروف ولد في مدينة (سان فرانسيكو) الأمريكية التي تعدّ موطنه الذي قضى فيه معظم سني حياته، يمتاز أسلوبه الشعري بالتعابير القوية، ونزعته التجديدية، إذ تكشف لغة قصائده الأولى عن عزمه "على التخلي عن موسيقى القرن التاسع عشر اللفظية، والتوكيد على النبرات الدرامية في الكلام المحكي كلّ يوم بألفاظ بسيطة، وتبطين في القول"[٣].

يستثير شعر روبرت فروست الصور الحسيّة والبصريّة والسمعية في أشكال إبداعية مدهشة، تستعيد حالات حُلمية غارقة في التجربة الإنسانية، فهو راسخ الكتابة في "المواضيع الكبرى الدائمة، كالحياة والموت، والعمل، والصداقة، والكراهية، والجنس، والطبيعة"[٤].

بقي روبرت فروست وفيّاً لجذوره الرعوية والزراعية في سلوكه وشعره وفلسفته في الحياة، توسّل بالطبيعة "للإعراب عن أفكاره ومشاعره، ذلك أن الأمريكيين، وقد نزحوا من الريف، لا يزالون يحنون إلى ماضيهم. فهم يهرعون إلى أحضان الطبيعة كلما سنحت لهم الفرصة. وهذه الطبيعة في نظرهم لم تعد ذات معنى متعالٍ، بل أصبحت تعني البساطة والطمأنينة، والجمال، والعجب"[٥].

إنّ فكرة الرعويّة في الشعر تحفر في جذور فكرية عميقة، تحتفي بحياة الريف، وتنتقل إلى عالم أكثر جاذبية واستقلالاً من الواقع بتشظياته، فهي تسير إلى حياة لا تطمع بأكثر من تحقيق حاجاتها الأساسية، "وإذا كان شعر الرعويات في مجمله يحمل في طياته معنى النقد والهجاء للواقع من خلال

الحنين إلى ماضٍ متخيّل، فإن نصوصاً كثيرة تعود إلى زمن موغل في القدم تصور ملامح مجتمع معين أكثر من اعتبار هذا الشعر أداة فنية للتعبير عن الفجوة الرهيبة بين الواقعي والمتخيل، بين الموجود والمفقود، ويمكننا أن نشير إلى عدد من النصوص في بلاد مابين النهرين، وفي بعض النصوص الشرقية الأخرى عند المصريين القدماء، والكنعانيين، والعبريين، والأكراد، والأتراك، والفرس، وغيرهم[٦].

إنّ الشعر الرافض للمدينة بمؤثراته الرومانسية" يقابله البديل المكاني والفكري والنفسي المتمثل بإعادة إنتاج الفكرة المتفرعة عن الرومانسية والمستقلة في مضمونها ومفرداتها والمعبّر عنها بالقرويّة أحياناً والرعوية أحياناً أخرى"[٧].

يتجلّى النبض الرعوي واضحاً في المشهد الشعري الفلسطيني المعاصر، فقد ظهر في الأعمال الشعرية الأولى لمحمود درويش وسميح القاسم، "لكن الشاعر الفلسطيني الأكثر احتفالاً بالرعويّة الزراعية...الرعوي بامتياز هو الشاعر عزالدين المناصرة؛ لأنه راود هذا الشكل الشعري وراده ثم باشر ممارسة شعريّة وتنظيراً، وبالتالي فإنّه كشف عن مقصديّة توجهت نحو الرعوية. ولعلّ ذلك حقق لشعره السبق والتميّز والانتساب بالقوة والفعل إلى هذا الجنس التعبيري المفكر فيه"[٨].

إنّ شعر عزالدين المناصرة -المولود في مدينة الخليل الفلسطينية عام ١٩٤٦م- راسخ الجذور بأرض فلسطين، ينماز باستلهامه للمعاناة الفلسطينية المعاصرة في قالب تراثي، يستحضر تاريخ الأجداد، وموروث وطنه الشعبي، فضلاً عن توظيفه للموروث الكنعاني لأرض فلسطين الذي "يتوحّد الشاعر فيه، ويمارس في أفقه طقوس الصلاة بكلّ وجدانه وفكره، فمن عُمق القبور، ترتفع أصوات الأجداد لتخاطب الشاعر، ويدخل المناصرة في حوار معها، بل إنّه ليس بالحوار، وإنما هو تجلّي الراهن في الذاكرة، وكأنها عملية يتداخل فيها الأسطوري مع الصوفي؛ ليسهما في تشكيل الفضاء القُدسي لدلالات النص"[٩].

لقد أبدع عزالدين المناصرة قصائد رعوية ظهرت في ديوانيه: "كنعانيا ذا" الصادر عام ١٩٨١م، و"رعويات كنعانية" الصادر عام ١٩٩٢م، فضلاً عن دواوينه ذات الصبغة الرعوية، كما في ديوان "مذكرات البحر الميت" الصادر عام ١٩٦٩م، وديوان "جفرا" الصادر عام ١٩٨١م.

لقد تأثر عزالدين المناصرة بالتراث العربي الذي يعدّ منبعاً مهماً رفد قصائده، فضلاً عن أثر المعاناة الفلسطينية الماثلة في احتلال وطنه وتشريد أهله.

كذلك كان للمؤثرات الأجنبية دور واضح في إثراء تجربة المناصرة الشعريّة، فقد أتقن الشاعر اللغة الإنجليزية منذ وقت مبكر من حياته، إذ يقرّ الشاعر بذلك في قوله: "في فلسطين درست اللغة الإنجليزية في المدارس وفق المنهج الأردني، وقد كان هذا المنهج قوياً، حيث حفظنا أشعار شيلي وكيتس و وردزورث وكولردج، وبعض سونيتات شكسبير ووليم بليك، وقرأنا روايات ديكنز، ولاحقاً تلقيت دورة في اللغة الإنجليزية في المركز الثقافي البريطاني في عمّان، وفي مصر تعرفنا من خلال الترجمة وبالرجوع إلى الأصل الإنجليزي على شعراء في وزن: ت.س. إليوت، ووالت وايتمان، وروبرت فروست"[١٠].

إنّ الدراسات التي تعرضت لشعر عزالدين المناصرة لم تعطِ المؤثرات الأجنبية حقها في شعره، بل اقتصرت على دراسة تأثره في قصائده القصيرة جداً (التوقيعات) بنمط قصائد (الإبيجرام) المعروفة في الشعر الإنجليز، فضلاً عن الإشارة إلى تأثير (إليوت) في شعره، لذلك تأتي هذه الدراسة المقارنة؛ لتسليط الضوء على أثر الشاعر الأمريكي (روبرت فروست) في شعر عزالدين المناصرة الرعوي.

ولما كان الشعر الرعوي ببعده الإنساني، وعمقه التاريخي موضوعاً مشتركاً بين الشاعرين، فإنّ دراسة تأثر عزالدين المناصرة المولود عام ١٩٤٦م بشعر (روبرت فروست) المتوفى عام ١٩٦٣م تعدّ أمراً ممكناً. إذ تُرجمت قصائد (روبرت فروست) في وقت مبكر منذ عام(١٩٦٢م) على يد الشاعر اللبناني يوسف الخال، ممّا أتاح للمناصرة وغيره من المثقفين العرب الاطلاع عليها، فضلاً عن معرفة بعضهم أيضاً باللغة الإنجليزية أصلاً.

إنّ الدراسة النصيّة لقصائد الشاعرين يمكنها التوقف عند تأثر المناصرة في شعره الرعوي برعويات (روبرت فروست) ونزوعه إلى تأصيل هذا الفن الشعري وبعثه ضمن رؤية فكرية خصبة.

لقد استوعب المناصرة تقنيات الشعر الرعوي كما عرفها التراث الإنساني بشكل عام والإنجليزي بشكل خاص، ممّا لا يمكن تفسيره بتوارد الخواطر، أو التأثر اللاواعي، بل بالاطلاع والتأمل في مضامينه، وأشكاله الفنية.

يُشير المناصرة إلى أن بداياته مع القصيدة الرعويّة كانت فطرية طفوليّة، ترتد إلى طفولة البرية، فضلاً عن أثر معاناة الحياة في ذلك، لكنه في الوقت نفسه قصد من وراء الشعر الرعوي في مرحلة متأخرة" إعادة إحياء نمط شعري أوروبي قديم"[11].

وفي حقيقة الأمر لا يمكن إنكار إعجاب المناصرة بشعر(روبرت فروست) ونزوعه نحو الرعويّة ببعدها الإنساني الرحب، لكن هذه الرعوية بقيت منقادة إلى موروث كنعاني خصب حدد مساراتها، ونهض بمضامينها الفكريّة.

لعلّ التعرّف على المرجعيات الرعوية عند كلا الشاعرين يكشف عن طبيعة التشكّل الرعوي في أشعارهما، فرعوية عز الدين المناصرة مستمدة من المكان الفلسطيني، ومن ذكريات الطفولة التي عاشها في وطن لا يفارقه، ممّا جعل أسماء القرى، والجبال، والينابيع، والنباتات، والطيور حاضرة في شعره الرعوي، إذ يرصد فيه مشهد الصبايا الراعيات اللواتي يسقن أغنامهن في ثيابهن المطرزة، وقد ارتفع صوتهن بالأغاني الجميلة، لذلك فإن شعر عز الدين المناصرة ذو مسحة رعوية ذات ارتباط طفولي خصب بمكان يحلم بالعودة إليه، وزمن يؤرخ للمعاناة الفلسطينية.

أمّا رعوية الشاعر الأمريكي (روبرت فروست) فمصدرها الطبيعة الحيّة التي عاش في أحضانها؛ لذلك نجده يعشق ريح الشمال، والمطر، والحيوانات، والنباتات، ممّا جعل شعره عميق الجذور في الحياة الرعوية بكلّ ما تعكس من نقاء، وعفوية، وجمال، فهو شديد الإخلاص للطبيعة، ينظر إليها بوصفها رمزاً خالداً للحياة، فكانت ثلوج الشتاء، وحياة القطيع، وغناء الراعي، وصوت الرياح، ووحشة الوحدة موضوعات أثيرة في شعره الرعوي.

إنّ نظرة فاحصة لقصائد الشاعرين الرعويّة تكشف عن التقاء واضح بينهما في المضمون، فضلاً عن التشابه بينهما في الرؤيا وتوظيف الرمز.

وقد تجلّى أثر (روبرت فروست) في شعر عزالدين المناصرة الرعوي من خلال الآتي:

١ـ مشهديّة الغابة وشخوصها:

جاء المشهد الشعري الرعوي في شعر عزالدين المناصرة ذا طبيعة مؤثرة، تستوحي حياة الريف وتقاليده، تستحيل الغابة من خلاله إلى صورة رمزية لحياة الصفاء الإنساني، تنتج معاني الخصب، وتقتفي

دفقاً إنسانيّاً وعاطفياً واضحاً، يرثي واقع الحال، حيث يقول(١٢):

ـ تقولون: قلبي ينزُّ الصَديدْ
شاعرٌ غارق في الملوحةِ،
في سَبَخات الأنا
بعد مقتله خلف طاولة الرسم في غابة الثلج،
والنار والمذبحةْ
صرتُ أتبعُ زيتونةً نائحة.

وهذا تأثر واضح بمشهديّة الغابة ورسوخها في شعر(روبرت فروست) الذي ابتعد في شعره الرعوي عن الماديات الزائلة، ووقف بخشوع أمام الطبيعة في حنين واضح إلى عهدها الذهبي، وما يعكسه من جاذبية آسرة، وروح نابضة بالحياة، حيث نجده يقول (١٣):

لمن هذه الغابة، أظنني أعرف
فمنزله في القرية هناك
لن يراني أقف لأتأمل
غابته تمتلئ بالثلج.

الغابة هي المركزيّة الأولى للمكان الرعوي، بل هي منبع الصفاء، ترمز إلى أوليّة الحياة ومنطلقها الخصب، لا تتأثر بمتغيرات الحياة، وما تزال تحتفظ في الشعر الرعوي بقيم وتقاليد راسخة لم تلوثها المدينة الزاحفة، لذلك فإنّ براءة الإنسان، وتلقائية الحياة جوهر الحياة الرعويّة في الغابة، وروحها الخالدة، كما في قول المناصرة في سياق انفعالاته الوجدانية ورغباته الروحية(١٤):

سيكونُ على الجملة حين تنامْ
أن تشتد قليلاً،
تتمطّى تعباناً في الفجر يُحرّكني كغرامْ.
حينئذٍ
أتوغّلُ في الوَهَجِ، وتشتعل الغابةُ باللذّةْ
وعلى ظهري
أستلقي كقتيلٍ
لأنامْ.

وهذا جعل من الغابة بتفصيلاتها مصدر لذة ومبعث ارتياح وسرور، يتفق فيه عزالدين المناصرة مع (روبرت فروست) في شعره الرعوي الذي ينتشي فيه بحياة الغابة، مرسخاً من رمزيتها واستحقاقاتها الروحية العميقة، حيث يقول(١٥):

الغابةُ رائعةٌ، حالكةٌ وعميقة،
لكن لي وعود يجب أن أفيها،
وأميال أقطعها قبل أن أنام،
وأميال أقطعها قبل أن أنام.

إنّ كلاً من المناصرة و(فروست) يختزن كرهاً لحياة المدينة، في مقابل حبّ عارم لحياة الغاب، فهي حياة لا يشعر

بجمالياتها إلا الحالمون ممّن يبحثون عن حياة النقاء والخلاص من أسر الواقع وانكساراته، فالرعوي لا يعرف إلا الحبّ والصفاء، يقدّس نظام الحياة الطبيعي، ولا يميل إلى الزيف والخداع، ممّا جعل من الشعر الرعوي شعر واقع واستبصار، يسمو بقيم الجمال، ويزهو بصوت الحياة، وانتظامها المدهش، لذلك فإن (روبرت فروست) يعلي من حياة الغابة، وما يسودها من نظام ثابت [١٦]:

لهائي نسيمٌ فوق الأزهار؛
أشمّ عبير التراب والنبات الجريح
وأرنو إلى مساكن النمل.

يلتقي المناصرة بفروست لقاءً واضحاً في كثير من تفصيلات المشهد الرعوي، ممّا جعلهما يميلان إلى الوحدة العضوية في مضامين قصائدهما الرعوية، لتأتي أفكارهما مؤنسنة في سياق فعل مثير، يعمّق من روح حياة الغابة، وإنتاجيتها للحياة، يقول عزالدين المناصرة[١٧]:

وأنا أضعُ التعاويذ على خاصرتكِ،
أستعرضُ فحولتي الكنعانية،
وأسأل البحر أن يحميك من العيون.
فنلقل للرعاة والجوالين:
دقوا مسامير حبي على أراغيلكم

لذلك فإن لقاء المناصرة بفروست لقاء فكري مهما اختلف بهما الزمان والمكان، تجمعهما رغبة جامحة في حياة رعويّة ذات نسق حضاري، يحشد من خلاله (روبرت فروست) ما يجده مناسباً لإقامة حياة رعويّة بقيمها الفاضلة وتقاليدها العادلة، وشخوصها الفاعلة، حيث يقول[١٨]:

من أعماق الوحلِ جاءني غريبان
والفيانني أحطّب في ساحة الدار،
فصاح أحدهما بي مستبشراً
اضرب بفأسك جيداً
لقد علمت لماذا تأخر عن رفيقه
وتركه يتابع وحده المسير:
كان يريد أن يعمل عملي بأجرة.

إنّ ثمة أوجه للقاء، كما هناك أوجه للافتراق، فالشاعر (روبرت فروست) يُبرز شخصية الحطّاب، ويجعلها أحد الشخوص الفاعلة في عالمه الرعوي، بينما نجد هذه الصورة تغيب عند عز الدين المناصرة، وذلك لطبيعة البيئة الرعوية في فكر كلا الشاعرين، وارتباطها بالحياة الريفية عندهما، إذ يغيب فعل الحطّاب عند المناصرة بعكس رسوخه عند فروست.

ولا يقوم التباين والافتراق بينهما في تباين عصريهما فحسب، بل ينعكس ذلك

في الغايات والوسائل التي تشيد العالم الرعوي؛ فالمناصرة يصدر في رعويته عن معاناة واضحة، قوامها احتلال الأرض، وتشريد ساكنيها، ممّا يجعل منها رعويّة مقاومة لواقع الانكسار، تهدف إلى ترسيخ هوية الشعب الفلسطيني، وبعث الروح النضالية في حياته، كما في قوله[١٩]:

ـ مَنْ هذا الطالعُ من وادي التّفاح
الأشقرْ؟؟!!
مَنْ هذا المغرورُ على سفح التلّ المذبوحْ
مَنْ هذا الطالعُ من شجر الغابة كالخنجرْ
مَنْ هذا الراكضُ، مثل غزالٍ
مرسوم، فوق بساط الريحْ

أمّا (روبرت فروست) فنجده صاحب معاناة فردية في رعوياته، تنبعث من خلالها رغبات وجدانية تنتصر لفعل الحياة بمعناها الإنساني الذي يحترم الرغبات، وينشد الخلاص من سطوة الواقع، ممّا جعل رعوياته أكثر احتفالاً بفعل الطبيعة، واستبطان النفس الإنسانية، كما في تصويره لموسم قطاف التفاح، حيث يقول[٢٠]:

أخذتُ أكثر من نصيبي
في قِطاف التفاح: تعبتُ كثيراً
من الموسم الخصب الذي تمنيته.
كانت هناك آلاف الثمار تلمسُها،
تستَمتعُ بلمسها، ترميها فلا ترتمي،
لأن كلّ تفاحةٍ تلامس الأرض،
ـ فتنكسر أو تطعنها حِرابُ القشّ،
ـ سيكون مصيرها أن تُعصر
كشيء لا قيمة له.

يتّفق الشاعران في طقوسهما العشقيّة، التي تتناسب مع طبيعة الحياة الرعويّة، فلا تحلو هذه الطقوس إلا في الغابة، وذلك في مشهد رعوي متكامل قوامه العاشقان والمطر، والأشجار، كما في قصيدته (سراج العشّاق) التي يقول فيها[٢١]:

الدمعُ هنا بين الأدغال المرويّة، بالمطر السحريّ
الأزهرِ، يتراكضُ في الغاباتْ
ودماء الزنج، هنا، صارتْ مزرعةً عاشقةً،
حين انهمر المطر السحريُّ الأخضرْ
صار الجبلُ الصخريُّ، مزاراً للعشاقِ،
مناراتْ.

وهو ذات المشهد العشقي الذي نجده في شعر (روبرت فروست) في قصيدته (من أغاني العاصفة) التي يصور فيها رغبة جامحة في لقاء المحبوبة مستلهماً أجواء الطبيعة، وسحرها المستمر، حيث يقول[٢٢]:

للعصافير ممّا تقوله لنفسها
في الغابة ـ العالم التي يمزقها اليأسُ

أقلّ ممّا تقوله الجنّيات الآن بعد هذه السنوات المديدة
مع أنها ليست أقل منها هناك:
أغاني الغابة كلها تتفتت بسهولة
كما تتفتت الوردة البرية.
تعالي، كوني حبيبتي في الغابات المبلّلة،
حيث تمطر الغصون حين تهبّ الريح.

إذ انـدمجت ذات الشـاعر وتوحـدت في الأجواء الرعويّة التي تضفيها الغابة على العاشقين، وهي أجواء ذات مخـزون دلالـي عميق من العواطف الإنسـانية الـتي تـنهض بفعـل الطبيعـة المتجـدد مـع حبـات المطـر، وحركة أغصان الأشـجار في غابـة تسـتظل العاشـقين، وتمـنحهم دفئـاً يفتقدانـه في أي مكان آخر.

٢ـ بلاغة الصورة الرعويّة:

تمتلك الصورة الشعريّة قيمة تعبيريّـة عالية، ومكانة فاعلة في بناء النص الشعري؛ لامتلاكهـا خاصـية الاختـزال والتكثيـف، وانطلاقها مـن العمـق الوجـداني للشـاعر، الذي يرسلها عـبر فضـاء اللغـة، فالصـورة رسمٌ قوامه الكلمات المشحونة بالإحسـاس والعاطفة[٢٣]. وتأتي أهمية الصورة في أنّهـا تجسيد لرؤية الفنـان الشـاملة للعلاقـة بينـه وبين العالم من خلال جزئيات صغيرة ممتلئة بالفكر والحياة معاً[٢٤].

ولما كان الشعر الرعوي شـعر مشـهد طبيعي، ونوازع نفسيّة عميقة، فإن الصـورة الفنيـة تعـدّ مكونـاً مهمـاً لبنياتـه الدلاليـة، ورؤاه الفنية؛ لاكتنازها بـالمعنى، وتوهجهـا بـالرؤى، وانفلاتهـا مـن سـياقات التعـبير المباشر إلى شحن الألفاظ بما في نفس الشاعر من قلـق، وحـبّ، وحريـة، وسـعادة أبديـة طالما ينشدها في طبيعة وارفة، يختار منها مـا يناسب تجربته الشعورية، ممّـا جعـل تأثيرهـا في المتلقي أكثر رسوخاً، وتوصيلاً للمعنـى، فالمفردات بسيطة مأخوذة من أفـواه النـاس تحت تأثير المشاعر الطبيعية التي تكون أكثـر تعـبيراً، ذلـك أن أنمـاط السـلوك في الحيـاة الريفية تتولد من هذه المشاعر الأولية، وهي أيسـر فهمـاً وأكثـر دوامـاً بسـبب الطـابع الضروري للمهن الريفيـة، ولأن انفعـالات الناس في هذه الحالة تتوحّـد مـع الأشـكال الجميلة الدائمة للطبيعة[٢٥].

لذلك فإن مشاعر الطبيعة الإنسانية هي الأوضح في الشعر الرعـوي، فهـي في شعر عزالدين المناصرة تمثـل بـؤرة نصـيّة تنبثق منهـا الـدلالات والصـور، كمـا في قوله [٢٦]:

أحمل أسئلتي...وأدور بها بين الركبانْ
كغزالٍ مجروحٍ وَلْهانْ
حين تكون الكلمةُ...حمقاء وَنَيْئةْ

وتكون مفاصلنا في الأزمات
مَرْخيّة.

وهذا الحس الرعوي نجده في شعر (روبرت فروست) الذي يرتد إلى عالم الطبيعة الذي يجد فيه ما يشبه واقعه، حيث يقول(٢٧):

الدب يطوّق بذراعيه الشجرة فوقه
ويجذبها نحوه كما لو كانت عشيقة
فتلذني الثمار شفاهها في قبلة وداع
ثم تعود واقفة في عرض الفضاء

ومن ناحية أخرى فإنّ شعريّة عالية تنسرب من الصور الرعوية التي يرسمها الشاعران، تمثل رؤاهما الحُلمية، وتُبرز ثورتهما على الواقع بانكساراته، وهزائمه المتلاحقة، فضلاً عمّا تحمله من توظيف واعٍ للأدب بشكل يخدم رؤيا المبدع بعيداً عن المباشرة، والاحتكام لنسقيّة اللغة المألوفة، كما في قول عزالدين المناصرة(٢٨):

يطفحُ الذلُّ في الكائناتْ
تُمحي من قبائلنا الرعويّةِ،
حلو الشمائلِ، أُذبحُ،
حتى البلاغة صارت من المعجزاتْ
فأين ربيعُ الصفاتْ؟

وهذا تساؤل إنساني حائر يجمع القلوب، ويوحّد العقول؛ للبحث عن حياة جميلة بصيغة جديدة، تنهض بفعل الحياة، وتنفر من الظلم وفعل القتل، وقد جاء هذا الخطاب الوجداني بتمازج واضح مع الطبيعة يعمّق من المعاناة ويبعثها من جديد. إنّ هذه الأنسنة للأفكار ومزجها مع عناصر الطبيعة الرعويّة جاء ذا طبيعة انفعالية واضحة في شعر (روبرت فروست)، إذ يعبر عن حيرته وقلقه لطبيعة الفعل البشري القاسي، وما يسود الواقع من امتهان لحياة الصفاء، فكان التساؤل وليداً لهذه المعاناة، كما في قوله(٢٩):

الأوراقُ كلها ميتة على الأرض
إلا التي على السنديان
لينزعها واحدة فواحدة
فتمضي تجرّ خطاها
هناك على الثلج القاسي،
والآخرون في سبات.

يبرز الثلج بوصفه جزءاً من الحياة اليومية للبيئة الرعويّة في شعر(روبرت فروست) إذ جاء مرتبطاً بصورة الغابة ومتعلقاتها، وحالاتها الإنسانية التي تُسقطها عليها الشخوص، وهذا ما يجعل الخطاب الشعري صورة من الذات، يمنحه الشاعر صفة محسوسة، تعمق خصوصيتها المادية، فتتحرك الألفاظ بحركة عواطف الشاعر التي تنزع إلى استخدام ألفاظ معبرة، وإقحامها بشكل تنافري في بنية النص الشعري، ممّا

ينقل المعنى بعيداً عن المباشرة، والتقليدية في البناء، كما في قصيدة (سقوط الثلج) التي يقول فيها[٣٠]:

هكذا دائماً، حين سقط الثلج المتجمع
أخيراً في إحدى الليالي
أبيض اللون، مثله في الغابات القاتمة،
وهو يغني، كما لن يفعل طيلة الشتاء،
أغنيته الهامسة على الأرض الخواء.

لعلّ هذا المعنى المجسّد للثلج وإيقاعه الرعويّ لامس جانباً مهماً في شعر عزالدين المناصرة الرعوي، جعله يقترب كثيراً من صور (فروست) الرعويّة، وتجسيده للثلج في قالب حركي باعث للحياة، حيث يقول[٣١]:

الثلجُ يَنِثُّ على أشجار الجامعة الفضيّةْ
ارفعكِ على كفّي، يتدفّقُ نهر الألوانْ
ثم أصيحُ كقطٍّ وحشيّ
يا غابة أعصابي...مُرّي بَلحَ الواحاتْ

لقد جاء النقد الحداثي ليوسّع من مفهوم الصورة "بحيث لا تقتصر على الإشارة للجانب التخييلي المجسّد للمجردات بطرائق حسّية تمثيلية، بل تشمل شبكة من الإجراءات التي تمتد من توظيف العناصر السرديّة الحركيّة إلى تنمية أنماط من الصور النحوية، وهي صور تعكس كفاءتنا في بناء الواقع حسب نماذج صورية متنوعة إلى جانب الصور الإيقاعية"[٣٢].

لذلك نلمس حركيّة الفعل المضارع واضحة في قصائد الشاعرين، فضلاً عن أنسنة الأشجار ومسحة الحزن المرافقة لهما؛ ممّا كشف عن ثورة دفينة على الواقع المنكسر، والتجاء الشاعرين إلى حياة رعوية مكتملة المعالم، كما في قول عز الدين المناصرة[٣٣]:

ترعى ماعز أوهامك في غسق النهايات،
تستحضر أرواح الأشجار الشائخة،
تتمادى في اختراق أسوار الوسن،
تشرب قهوتك المرة،
تتسلل في حلمك نحو حقول النارنج،

وهذا الاتجاه الرعوي شكّل عمقاً حقيقياً للبصيرة الأدبية، وروحاً فيّاضة بالمعنى، مكتنزة بالصور، إذ تحفر الطبيعة قانونها في أهل الريف، لتستجيب لمقتضيات الطبيعة بوصفها حالة إنسانية خالصة، كما في شعر (روبرت فروست) الذي يُصعّد من حركيّة الفعل المضارع في أنسنة واضحة للطبيعة، وتكثيف للأحزان، حيث يقول[٣٤]:

تُمسك بالغصن اليابس المجعّد،
وتنظر عالياً، وكم تبدو صغيراً

عند أقدام الغابة. والورقة الوحيدة التي تسقط
تطير بعيداً، ولا اسم لك عليها
تتوقف قليلاً ثم تمضي،
وتظل الغابات سائرة في طريقها
دون أن تنسى حتى الأزهار الحقيرة
التي اقتطفتها غنيمة الساعة

لعلّ هذه المسحة الرعويّة تمتاز بصورها الطبيعية المرتدة إلى زمن الطفولة والبراءة والحلم، وتكريسها للممارسة الشعريّة الرعويّة الممزوجة بتكثيف استعاري، وذلك في إحتفاء واضح بمظهر رعوي مقدس.

٣ـ فاعلية الرؤى الشعريّة:

الرؤيا مركز إشعاع مهم في أي نص شعري، إذ لا بدّ من وجود رؤى مسبقة واضحة الملامح في وجدان المبدع؛ ليتمكن من الانطلاق، وبناء نصه الشعري وفق نسق إبداعي خاص، يتّسق مع هذه الرؤيا، ويحاول الوصول بها إلى المتلقي.

وإذا كانت الرؤية هي من فعل الباصرة في حالة اليقظة، فإن الرؤيا هي من فعل التخييل في أثناء الحلم[٣٥].

لذلك فإن الرؤى الشعريّة تنبع من جوهر التجربة الإنسانية وممّا يمنحها العمق والأهمية، فهي روح دائمة النبض، وفيض وجد خالص ينبع من معاناة الفراق، وألم الغياب، فكان التواصل مع الموروث والتمسك بالتاريخ لغة مشتركة واضحة الدلالة في قصائد (روبرت فروست) وعزالدين المناصرة؛ إذ يؤمنان "بضرورة ارتياد الإنسان لكلّ ما يتصل به وبذاته إلى أقصى الحدود، وخاصة رؤياه الفردية والهامه الخاص"[٣٦].

إذ يعود (روبرت فروست) إلى تراثه القديم بصورة واضحة، مُعليّاً من قيمه الإنسانية، وارتداداته العميقة، حيث يقول[٣٧]:

الأرض كانت لنا قبل أن نكون للأرض
كانت أرضنا منذ نيف ومئة سنة
قبل أن نكون شعبها. كانت لنا
في ماسنشوسيتس، في فرجينيا،
ولكننا كنا لانكلترا، مانزال مستعمَرين،
نمتلك ما كنا لا نزال غير ممتَلكين به،
ممتلكين بما لم نعد الآن نمتلك.

وهذا الارتداد للتراث أمرّ مألوف في شعر عزالدين المناصرة الذي طالما وجد في جذوره الكنعانية روحاً تمده بالحياة، ممّا شكّل له مرجعية مهمة في شعره تندمج مع الذاكرة الفلسطينية؛ لتكوّن رؤى شعريّة خصبة، وروح دائمة التجدد، يقول[٣٨]:

إنْ وجدتمْ عَظْمَةً مُعَفَّرةً بالتراب الندِيّ
فهي، حتم...أنا.
أوْ وجدتم شجيرةً بريةً نامية بالصُدفة،
ليست أبداً صُدفة.

وإذا كانت الطبيعة قد اجتذبت (روبرت فروست) فإن عزالدين المناصرة جعل منها وسيلة لإبراز أفكاره، وإثراء صوره بالمعاني الخصبة، ممّا جعلها أقرب لوجدانه، وجزءاً من تشكّلات نصوصه العميقة، حيث يقول(٣٩):

مطرٌ فوقَ نافذتي والثلوجْ
لاحقتْ بُلبلاً في سماءِ المروجْ
وأنا أقرأ الأرجوانَ الطبيعيَّ في لوحةٍ رَسَمَتْها (تمام)
أتأمّلُ (شموطَ)، يغوي قطيعَ غمامْ
وينتظر العودة الأبدية نحو الجذورْ.

إذ تجاوز تأثير (روبرت فروست) في شعر عزالدين المناصرة الرعوي الصور والألفاظ إلى المعنى الذي تشيع فيه الرؤى، وتنبعث من خلاله الأفكار النازفة، فكلا الشاعرين يسعى إلى ترسيخ رؤاه في المتلقي، وبعثها في قالب تأملي ينطلق من حُلمية الطبيعة وانبعاثاتها الوجدانية التي تستدعي مشهداً متكاملاً برغبات شخوصه وأمالهم المشروعة في الحياة، كما في وصف (روبرت فروست) لطبيعته الثائرة(٤٠):

حين تقاومنا الريح في الظلام
وترجم بالثلوج
الشباك الشرقي في الأسفل،
وتهمس بما يشبه النباح الخافت،
يا لها من وحش،
أخرجوا، اخرجوا!
-لا نجد صعوبة في أن لا نفعل،
آه، كلا!
ونحصي قوتنا المحاربة:
اثنان وطفل،

إنّ إبداع حالة حُلمية تتجلّى فيها الرؤى، يمثل وجهاً آخر للرعوية بجماليتها التعبيريّة وغناها الروحي، وعمقها الباعث لفعل الحياة، ممّا سمح باستثارة الصور الحسيّة والبصرية في مشهد حركي لا يخلو من التقاليد الرعويّة الراسخة التي لا تنفصل عن ارتباط طفولي حالم، إذ يلجأ عزالدين المناصرة إلى أسطرة الشخصية الرعويّة، وتوظيفها توظيفاً فنيّاً، يعبّر من خلاله عن رؤيته الفكرية، وصدمته القاسية من مرارة الواقع بعدما أصبحت فيه الفوضى، والتشرّد سمة ملازمة لشخوصه، حيث يقول(٤١):

كان جدّي يُربّي الخيول على تلّةٍ عالية
قال لي: كي أعوّدها أن ترى البحر،
وهو يُنازعُ، يلفظ آخر قَذْفَة نارْ.

تهيج الخيول، فترفسُ رمل الأعالي،
تصيح النساءُ: اهدئي يا جِرارُ، اهدئي
يا جرارْ.

إذ إنّ التشابه في التراكيب والنسق الشعري واضح بين الشاعرين بعدما أوجد (روبرت فروست) نماذج بشريّة تنهل من المعين الرعوي، حيث يقول(٤٢):

كانوا ثلاثة في المرج قرب الساقية
يجمعون أعواد السنابل ويكدّسون الشوفان،
بعيون مرفوعة دائماً نحو الغرب
حيث أقبلت غيمة داكنة لوّنت الشمس
أطرافها، تحمل خنجراً لا ينجي
عن اللمعان عبرَ حضنها. وفجأة
غرز الفلاح الأول مداراته في الأرض
وغادر الحقل إلى البيت. أمّا الثاني
فبقي. كان من المدينة، لذلك لم يفهم.

لقد بقي النهج الرعوي في قصائد الشاعرين وهجاً يمدهما بالرؤى والصور المعبرة، ذات التشكّل الوجداني المنتمي لبيئة حيّة تسعى إلى الاغتناء بخبرة الواقع، ورعوية المكان هرباً من العالم المادي بصخبه وصدمته المؤلمة.

خاتمة:

احتفظ عزالدين المناصرة برؤاه الشعريّة المنبثقة من بيئته وعصره، فضلاً عن معاناة الاحتلال وما تركته من أثر قاسٍ قاده إلى تعميق الروح الرعويّة وترسيخ الهوية الفلسطينية في النفوس. وإن كانت الروح الرعويّة هي التي تجمعه بالشاعر الأمريكي (روبرت فروست)، فإن المناصرة -في شعره الرعوي- ارتبط ببيئته العربية وقضيته الفلسطينية، وبخاصة في ديوانيه: "كنعانياذا" و"رعويَّات كنعانية"، حتى في عنوانات قصائده التي لم تفقد روحها الرعويّة، إذ تنبثق منها الأفكار بتوتراتها الصوريّة، وأنينها الذي يؤرخ للألم الفلسطيني وجرحه النازف.

ورعويّة العنوانات أمرٌ شائع في شعر (روبرت فروست) الذي يستثير في شعره الرعوي أحلام اليقظة في حسّ إنساني جارف يُضفي على الصور والألفاظ معاني مجازية توحي بحيوية المشهد، وبخاصة صورة الغابة بطبيعتها الملهمة.

تبقى خصوصية شعر (روبرت فروست) الرعويّة في ارتباطه بمزرعته التي يرصد من خلالها حركة فصول السنة وتميّزها في موسم الثلج، كذلك فإن صورة الحطّاب والراعي تكاد تكون مرافقة للمشهد الرعوي في شعره، بعكس رعويات عزالدين المناصرة التي تكاد تختفي منها شخصية الحطّاب، لطبيعة البيئة التي يحياها الشاعر؛ ولتتوهج بدلاً منها الجذور

الكنعانية من جديد بوصفها جوهر شعر المناصرة ومرجعيته التاريخية التي يبني من خلالها عالمه المعاصر.

الهوامش:

(١) لؤلؤة، عبدالواحد، موسوعة **المصطلح النقدي (المفارقة وصفاتها، الترميز/ الرعويّة) مقال بعنوان: الرعوية،** تأليف: بيتر مارييّنلّي، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، ع٤، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣م، ص٣٨٣.

(٢) لؤلؤة، عبدالواحد، **موسوعة المصطلح النقدي**، المقال السابق، ص٣٨٧ـ٣٨٨.

(٣) طومبس، لورنس، **روبرت فروست**، ط١، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩٦١م، ص١٧.

(٤)الصايغ، توفيق، **الأعمال الكاملة (خمسون قصيدة من الشعر الأمريكي المعاصر)**، اختيار وترجمة توفيق الصايغ، ط٢، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩٠م، ص١٧.

(٥) الخال، يوسف، **روبرت فروست (قصائد مختارة)**، ط١، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٦٢م، ص١٢-١٣.

(٦) السعافين، إبراهيم، **لهب التحولات (دراسات في الشعر العربي الحديث)**، ط١، دار العلم العربي للنشر والتوزيع، دبي، ٢٠٠٧م، ص٢٩٢.

(٧) رزوقه، يوسف وآخرون، **عزالدين المناصرة (شاعر المكان الفلسطيني الأوّل)**، ط١، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٨م، دراسة لحاتم الصكّر بعنوان: مثل راعٍ وحيد (شعريّة قصيدة النثر عند المناصرة...مذكرات البحر الميت، كنعانيا ذا) ص١٦٧.

(٨) بوديك، محمد، **شعر عزالدين المناصرة (بنياته، إبدالاته، وبعده الرعوي)**، ط١، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٦م، ص٧٦.

(٩) بوعديلة، وليد، **شعريّة الكنعنة (تجليات الأسطورة في شعر عزالدين المناصرة)**، ط١، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٩م، ص٨٢.

(١٠) رضوان، عبدالله، وآخرون، **امرؤ القيس الكنعاني (قراءات في شعر عزالدين المناصرة)**، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩م، شهادة ذاتيّة للشاعر عزالدين المناصرة، ص٤٣٨.

(١١) رضوان، عبدالله، وآخرون، **امرؤ القيس الكنعاني (قراءات في شعر عزالدين المناصرة)**، شهادة ذاتيّة للشاعر عزالدين المناصرة، ص٤٢٨.

(١٢) المناصرة، عزالدين، **الأعمال الشعريّة**، ج٢، ط١، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٦م، ص٣٧٤ـ٣٧٥.

(١٣) الخال، يوسف، **روبرت فروست(قصائد مختارة)**، ص٥٧.

(١٤) المناصرة، عزالدين، **الأعمال الشعريّة**، ج٢، ص٣١٣.

(١٥) الخال، يوسف، **روبرت فروست(قصائد مختارة)**، ص٥٧.

(١٦) الخال، يوسف، **روبرت فروست(قصائد مختارة)**، ص١٨.

(١٧)المناصرة، عزالدين، **الأعمال الشعريّة**، ج٢، ص١٠٨.

(١٨)الخال، يوسف، **روبرت فروست(قصائد مختارة)**، ص١٤٢.

(١٩) المناصرة، عزالدين، **الأعمال الشعريّة**، ج٢، ص٤٦.

(٢٠) الخال، يوسف، **روبرت فروست (قصائد مختارة)**، ص٢٢.

(٢١) المناصرة، عزالدين، **الأعمال الشعريّة**، ج١، ط١، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٦م، ص٤٥٨.

(٢٢) الخال، يوسف، **روبرت فروست(قصائد مختارة)**، ص١٩.

(٢٣) لويس، سيسيل، **الصورة الشعريّة**، ترجمة أحمد الجنابي وآخرون، ط١، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، ١٩٨٢م، ص٢١.

(٢٤) شكري، غالي، **شعرنا الحديث إلى أين؟**، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨م، ص١٢٤.

(٢٥) كولريدج، **النظرية الرومانتيكية في الشعر**، ط١، ترجمة عبدالحكيم حسّان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٢٧٢.

(٢٦) المناصرة، عزالدين، **الأعمال الشعريّة**، ج٢، ص٣٣٠ ـ٣٣١.

(٢٧) الخال، يوسف، **روبرت فروست(قصائد مختارة)**، ص١١١.

(٢٨) المناصرة، عزالدين، **الأعمال الشعريّة**، ج٢، ص٣٣٨.

(٢٩) الخال، يوسف، **روبرت فروست وآخرون (قصائد مختارة)**، ص١٨٠.

(٣٠) الخال، يوسف، **روبرت فروست (قصائد مختارة)**، ص١٠٩.

(٣١) المناصرة، عزالدين، **الأعمال الشعريّة**، ج٢، ص٢٠ـ٢١.

(٣٢) فضل، صلاح، **تحولات الشعريّة العربية**، ط١، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٤٩.

(٣٣) المناصرة، عزالدين، **الأعمال الشعريّة**، ج٢، ص ١٠١.

(٣٤) الخال، يوسف، **روبرت فروست، (قصائد مختارة)**، ص٩٣.

(٣٥) يُنظر: ريان، أمجد، **صلاح فضل والشعريّة العربية**، ط١، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٦٥.

(٣٦) بورا، سير موريس، **الخيال الرومانسي**، ترجمة إبراهيم الصيرفي، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٣٣٦.

(٣٧) الخال، يوسف، **روبرت فروست (قصائد مختارة)**، ص٥٩.

(٣٨) المناصرة، عزالدين، **الأعمال الشعريّة**، ج١، ص٣٥٤.

(٣٩) المناصرة، عزالدين، **الأعمال الشعريّة**، ج١، ص٤١٢. والقصيدة يُهديها الشاعر إلى الصديقين الفنانين، إسماعيل شموط، وتمام الأكحل، وهما من رواد الفن التشكيلي الفلسطيني الذين احتفوا بالطبيعة منذ الخمسينيات من القرن الماضي.

(٤٠) الخال، يوسف، **روبرت فروست (قصائد مختارة)**، ص١٨٥.

(٤١) المناصرة، عزالدين، **الأعمال الشعريّة**، ج٢، ص٣٤٠.

(٤٢) الخال، يوسف، **روبرت فروست (قصائد مختارة)**، ص١١٥.

Copyright of Al-Mishkat For Humanities & Social Studies is the property of World Islamic Sciences & Education University (WISE) and its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission. However, users may print, download, or email articles for individual use.